مداخلة نظرية

الفِعْلُ بَيْنَ التَّوَطُّنِ في المُمَارَسَةِ والتِّرْحَالِ في مَنْفَى الحِكَايَة

مالك الريماوي

المنتديات، بالنسبة لشخص مثلي، متورط في الانتماء لها عن بعد، **والبعدُ مسافةٌ، والمسافةُ مرآةٌ ومتاهةٌ ولكنها رؤيةٌ أخرى، وعلاقةٌ نقدية، وتورطٌ من نوع مختلف** من هذه المسافة وهذا الانتماء الرخو لهذه التجربة – أرآها حالةً من المتعة والرعب والإعجاب، هي مشاعر كل متفرج على لاعب يمشي على حبل. ويومياً، أرى هذه المنتديات تتسلل، كلٌ على حبله، وكلٌ في مساره، لكني من موقع الرائي استمتع بهذه البراعة فيً التسلل، وينتابني الهلع كلما خطر لي هاجس السقوط، وينتابني الإعجاب كلما أنهى أحدها مشواراً صعباً.

هذه شهادة حب لتجربة تستحق الدعم والمساندة من جهة، والمثابرة والاستمرارية من جهة أخرى، ولكنها أيضاً تستحق الحماية، الحماية من الذهاب إلى الآتي دون التحصُّن من خطر النسيان ومن خطر مواجهة المستقبل بلا فتوحات جديدة، ومواجهتها معاً ممكنة عبر السرد والتوثيق.

فالتوثيق هو كتابة المنتديات كنص، والسرد هو كتابة نص المنتديات، كرؤية تعمم، وكتجربة وممارسة تختبر، وكفعل يكتب على الأرض ويفكر فيه، لاستخراج العقل منه، لنقده ومحاورته دوماً، فكل فكر يتجدد بنقده ومحاورته بالنقيض فيه، وهذا ما سنحاوله اليوم في لقائنا هذا.

كل لقاء تكون غايته فيه كلقاء فقط، هو ليس شيئاً، ولهذا اخترنا لهذا اليوم عنوان "**الهوية والحكاية**"، وهما مسميان لشيء واحد في جوهره نحن، فهويتنا هو ما نعتقده عن أنفسنا، وهذا هو ما نحكيه وما نعرفه من خلال الحكاية، فالأمم والجماعات والمؤسسات هي –في جوهرها– سردياتٌ ونصوصٌ وحكايات.

وسأبدأ بالنقد وأنتهي بالحكاية، فالنقد من الحكاية هو آخرها أو النقيض فيها، والحكاية هي للنقد حاضنته ومجاله، فالمنتديات هي المعلمون في سيرورة تحاورهم، وفي صيرورة تحقيق أدوارهم المهنية والفكرية والمجتمعية.

اليوم لدينا منتديات؛ بمعنى أن لدينا تجربةً وممارسةً وليس مجرد فكرة هلامية طافية أو عائمة، الآن نحن على الأرض، ليس على أرص خربة، خلاء، بل هي أرض عامرة بالممارسة المتنوعة، ممارسة حفرت في الفضاء المهني والاجتماعي مسارات وممرات وخرائط، ولذلك علينا أن نهبط إلى التجربة، إلى الممارسة نقرأها، ونعيد النظر فيها، والقراءة التأملية هي للممارسة روح استمرارها، فكل ممارسة لا تختبر بالنقد هي ممارسة في طريقها إلى الانحراف.

أثناء محاوراتي اليومية لمعلمين في المنتديات، أو لمن يتصدون لمهام التنسيق والمتابعة، قلت لبعضهم أخشى عليكم من ذلك التوسع السريع، الذي قد **يحولكم إلى حالة** "**من الخفة لا تحتمل**"، إذا لم تتمكنوا من بناء نواة ثقيلة وفريق انفعالي مؤمن بالتجربة، ويمتلك الرؤية الفكرية والرغبة في العمل الشاق والطويل، وقلت لآخرين عكس ذلك بالضبط، أخشى عليكم البقاء في دائرة الأصدقاء "مجموعة أصدقاء فقط"، فقدت الصلة بالمعلمين أو في طريقها إلى ذلك، واتفقنا أحياناً أن الخوف ليس من الفشل فقط، بل علينا الخوف من النجاح أيضاً، لأن النجاح يحتاج إلى نجاحات دائمة، وإلا أصبح عبئاً، ولأنه أيضاً يستنفر أعداء لم نكن نتوقعهم، أو يخلقهم أحياناً.

لدينا مشاكل وصعوبات كبيرة أحياناً، وصغيرة أحياناً أخرى، لكننا بالتعاون والحوار نجعلها كلها قابلة للتجاوز، أزمة المكان يمكن حلها، أزمة التواصل يمكن تجاوزها، أزمة شح الموارد لها حلول، لكن أزمة الثقة مثلاً هي صدع من الصعب تجاوزه، ولذلك نعتقد أننا اجتزنا الكثير من الصعوبات بسبب تلك الثقة مثلاً، ولذلك سأكون هذه المرة جريئاً في طرح ما يمكن اعتبارها مجرد مخاوف، علينا استشعارها قبل أن تجد لذاتها طريقاً إلى المنتديات.

اليوم نتابع تجربةً عمرها ثلاثُ سنوات، تجربةً في العمل الجماعي

التعاوني الطوعي والتطوعي، عمل يعتمد على مبادرة الأفراد، والحوار الجماعي، ويتحقق في سياق مجتمعي، في مدن وقرى وبلدات، ومع ذلك فقد تمكن هذا العمل من النجاح للأسباب التالية:

الأول: أن المنتديات حتى الآن تمكنت من أن تكون مشروعاً لكل أعضاء المنتدى، ولم تفرخ حالات تفرد وهيمنة، بحيث يصبح المشروع يساوي شخصاً معيناً زائد آخرين، فكل منتدى هو لكل أعضائه.
الثاني: قدرة المنتديات على التخلص من أخطر مرضين في المجتمع الفلسطيني؛ ألا وهما الصراع العشائري أو التنظيمي، وهذه ميزة المنتديات، لكونها خاصةً بفئة المعلمين، فئة قادرة على تجاوز العشائرية؛ سواء القبلية أم السياسية، والانشغال بالهم المهني والثقافي والمجتمعي الذي يعنى الانتماء إلى ما هو أكبر من العشيرة والتنظيم؛ ألا وهو الوطن.
الثالث: التنويع في العمل وعدم الركون إلى التقليد والروتين، وذلك لكون المنتدى أسبق من نظامه، هنا فكرة تعانق ممارسة، وكل منهما تدفع الأخرى إلى الأمام.

واليوم، سأركز حديثي عن توثيق التجربة من جهة، ودفع المنتديات للتفكير في الذهاب في عملها نحو خلق أنوية ومجموعات تعمل على سرد التجارب، تجارب المنتدى، وتجارب العمل المهني والشخصي، ضمن توجه مزدوج: كتابة قصة المعلم الفلسطيني الجمعية، وكتابة التجارب الشخصية ضمن التكوين المهني والذاتي لكل معلم، وهذا -في اعتقادي- هو الأهم في الوقت الراهن، فعل يمارس الحماية بالتطوير، فعل يمارس حماية التجربة بفتحها أكثر والذهاب بها إلى ما هو أعمق وأبعد وأهم، نحميها منهم، ومن نفسها، وهذا ما نفعله دوماً، لكننا سنفعل ذلك في عامنا القادم بوعي عال، فثمة خطران في الباب: سلطة النسيان، ومفاجأة المستقبل، أخطر ما قد تواجهه تجربة من هذا النوع هو الركون إلى الصمت أو السكون، إلى ما حققته وعدم المقدرة على مواجهة القادم بمفاجأة ونجاحات وإبداعات تفوق ما يحمله لها من مخاطر، هذا من جهة، ومواجهة النسيان بذاكرة مكتوبة وموثقة تحمي التجربة من الضياع وتشكل مادة للسرد والتأمل والمراجعة النقدية من جهة أخرى. ولذلك، سنحاول في هذا اليوم **أن نؤكد أن ما سيحمي التجربة هو الصوت عبر خلق رصيد صوتي لها، وصندوق ذاكرة ينمو معها وينميها، وعبر الحركة؛ حركة الاندفاع إلى الأمام، إلى المغامرة، إلى إرادة المعرفة، إلى رغبة الفعل، كل هذه إستراتيجيات للتقدم والحماية.**

ولذلك، نقترح على المنتديات، التركيز في العام القادم على التجربة والحكاية معاً، توثيق التجربة، بشكل عام، تجربة المنتديات كفعل لجماعة، وتوثيق تجارب الأفراد أيضاً على المستويين المهني والشخصي.

عبر إستراتيجية ثلاثية: ممارسة - توثيق - حكاية، والممارسة هي نص الفعل، والتوثيق هو كتابته كمادة خام، والحكاية إعادة تنظيمه وصياغته بأفق معرفي وخصوصية وجدانية. **في السرد لا يوجد فهم فقط، بل تأويل وتفاوض وتنظير معرفي، وتأمل فلسفي، وفتوحات جغرافية واجتماعية، ولهذا يندرج السرد ضمن أدوات بناء المعرفة،** ونقد الواقع، وصياغة الهوية، فأعمق الفلسفات قد توجد في سردية صغيرة، **في السرد لا نلتقي بالآخر إلا عبر الاعتراف به، والرغبة في معرفته، وهذا أُسُّ اللقاء، نفسح له مكاناً ونستضيفه في رحاب الذات، في السرد نعترف بالوجدان، فنتعلم لغة، بفعل العقلانية العلمية والمعيارية الاجتماعية كدنا أن ننساها.**

وبعد الطواف في رحاب التجربة، وقراءة بعض معالم الخريطة، وبث هواجس الخوف، نعود إلى أصل الحكاية، كل عام نصوغ رؤية، ونبشر بدور جديد، وكلاهما لا يولد من فراغ، بل من أحشاء عام مضى في الفعل والممارسة.

في السنة الأولى ركزنا جهدنا وعملنا على الحوار التربوي تحت شعار "**التنمية الثقافية للمعلم**". وفي السنة الثانية ربطنا التنمية الثقافية للمعلم بدوره المجتمعي، **عبر فكرة المعلم المثقف**، وعبر ربط المدرسة بالمجتمع، **وربط التربية بالثقافة كفعل نقدي وممارسة معرفية تدخلية في المجتمع**، وفي هذه السنة نعود لدمج كل المقولات السابقة **في أفق** "**الحكاية والهوية**"، من نظرة لا ترى في المعلم مجموعة تقنيات، بل شخص ومهنة ودور يتحاورون في هوية، شخص على صلة بآخرين، وفي علاقة صيرورة مع أناه وأنوات أخرى، ويعمل في سياق، لكن ما يميز أي تجربة هو تفردها وهنا سنركز الحديث.

لنذهب في عامنا القادم إلى الخاص والفردي والوجداني في كل تجربة، عبر:

1. ممارسات تعليمية ومجتمعية يكون الفرد فيها جزءاً من الموقف.
2. توثيقها بأعلى وأفضل درجة ممكنة: تصوير، كتابة، يوميات، مذكرات، أعمال، نماذج، أشياء تتكلم.
3. سرد التجربة ضمن أفق تكويني تدريبي "تدريب ذاتي تدخلي" يحقق إسهاماً مضاعفاً: فكر التغيير وحامليه، ماديته وأدواته، لأن عملية التطوير كنا نفهمها أكثر من عملية نقل معلومات ومهارات، إنه بالأساس مشروع قناعات وتحولات، تبدأ من الممارسة وتعود إليها عبر إستراتيجية: ممارسة، سرد، تأمل، ممارسة تساوي اختراقاً، إزاحة، تجاوزاً، فـ:

كل سرد هو اختراق لممارسة إلى العقل فيها.
وكل سرد هو إزاحة لها باتجاه الذاتي والخاص والمختلف.
وكل سرد هو تجاوز للمعرفة الراهنة إلى المعرفة الغائبة، وبالتالي تأسيس لممارسات جديدة أكثر تفرداً وخصوصية.

ممارسة، سرد، هوية، ستكون على رأس انشغالاتنا القادمة، من أجل التصدي لسؤال: من نحن؟ كأفراد، كمهنيين، وكمؤسسات؟ هل نحن ما نمارس؟ أم ما نحكي ونقص؟ ثمة توجهات تعطي اللغوي والنصي والسردي الأولوية في موضوع الهوية والتكوين والتطوير، وثمة أخرى ترى أن الممارسة اليومية والخبرة المعاشة والعلاقات الاجتماعية هي نقطة الرسو لمشروع الهوية وتكوينها وتطويرها، ولكن من رؤيتنا للهوية كعملية تبنى اجتماعياً بوصفها حياكة جدلية لجملة من الخطوط والاختراقات والإزاحات، نرى أن السرد والممارسة فيها يتداخلان ويتعابران، فالسرد شرط الممارسة، وحتى عندما يلحق بها ليوثقها فإنه

أيضاً يتقدمها ليفتح لها حقولاً وآفاقاً. ومع أن الممارسة تجتاح السرد وترتحل به إلى مناطق لم يجتحها من قبل، فإنها لا يمكن أن تفهم خارج نظام الدلالات، وخارج شرط السرد، **فالبنى السردية وأنماط القول لا تحدد هويات الناس، وتقرر سلوكهم فحسب، بل تحدد أيضاً رؤيتهم لممارساتهم ولطرائق فهمها وللمعنى الذي تحويه.**

ولذلك، فالممارسة كنص اجتماعي يحدث في مكان، وضمن علاقة مع الآخرين، هو في حقيقته ناقص لا يكتمل إلا بالسرد، السرد الذي يجلب الممارسة للتأمل والنقد، يجلبها للقول والكتابة، فعل يعيد تشكيل الممارسة والذات الممارسة، ما يجعل الكل في حالة تفاوض وتفاعل: أنا، والآخر، والمكان، والفعل، والقول، كلها في حالة تفاوض، لا وجود لعنصر متعال، هنا لا يوجد سوى الجدل، جدل تتشكل ضمنه الذات، ويعاد تشكيل خبرتها ومعرفتها.

نرى أن المنتديات تمتلك كل المقومات لتتصدى لهذه المهام معاً، وبخاصة مهمة التطوير المهني المستمر من خلال امتلاكها مجموعات من المعلمين الذين يمتلكون مقداراً كافياً من الرغبة والإرادة التي تجعل منهم "**جماعة انفعالية وفريقاً فاعلاً**"، يستقطب آخرين ضمن رؤية تقول: "**كل معلم يتغير يصبح بدوره وسيطاً للتغيير**"؛ **بمعنى يصبح فاعلاً للتغيير وحاملاً لفكره.**

اليوم نعيد طرح السؤال بكل طزاجته وبكارته: كيف نفاجئ المستقبل برؤى لا يقوى إلا على الانصياع لها؟ وكيف نمنع الزمن والنسيان من أن يقتات على مفاتن التجربة؟ الجواب: إنها الحكاية.

مالك الريماوي
منسق المنتديات – مركز القطان